

دارما

كلمة دارما في السنسكريتية - وجذرها dhr ومعناها "حمل" و"شدّ" - هي مرادف للدعم والشد، وهي تفيد بذلك الناموس الذي يضبط سلوك الكائنات. ولـ"دارما" في فترة الفيذا (الألفية الثانية ق.م.) معان كثيرة، فهي نتيجة فعل "الدعم" أو "الشد"؛ أو هي ضمان تماسك العالم في كليته (أي علاقة الانسجام بين الآلهة والبشر والحيوانات والأرواح الشريرة، وكذلك توازن الكون بأكمله)؛ وأيضا هي ضرب من ناموس أزلي ذي مبدأ ثابت يسير انتظام الأشياء الزائلة والمتعددة وانسجامها.

ولما كان معيار الانسجام الذي ينبغي استبقاؤه أو استرجاعه هو الدارما، فقد كان من المهم معرفتها بالتضلع من النصوص والطقوس على وجه الخصوص: ذلك أن تعريفها إنما هو تعريف نظام الكون وانتظام الحياة الاجتماعية في حال واحدة.

إعادة القراءة البوذية

استعمل بوذا (القرن الخامس ق.م.) اللفظ مجددا وأناط به معنى جديدا، فأصبحت الدارما لفظا عاما دالا على كل تجربة وعلى كل ما يوجد. فهو يدل على التجارب المتعددة العارضة كما يدل على التجارب المفضية إلى الخلاص والنيرفانا. وتبدو الدارما، في المقام الأول وعلى النحو الذي يقدمها به بوذا، تجربة أصيلة ورؤية واضحة وسديدة للواقع. وتفرض هذه التجربة نفسها باعتبارها حدسا مفاجئا للذهن الذي يرى الواقع كما هو، وباعتبارها رؤية محررة من الناموس الكلي الوحيد والمفارق. وبوذا هو أول من وعى هذا الناموس الأساسي الذي يُسيّر انتظام الدارما المتعددة بمعنى الظواهر وبمعنى التجارب المخصوصة، والذي يصف العلاقات (نيدانا) التي تربط الأشياء بعضها ببعض. وتمكن معرفة هذا الناموس من هدم أشكال الانتظام الفاسدة للبنى الذهنية من قِبَل أن الإنسان يقلب الواقع بالإذعان للاعتقاد في

الدوام والاكتفاء بالذات ووجود ذات والوَحدة، والحال أن كل شيء متعدد بطبيعته. ويتلخص جميع هذا في مفهوم الخواتم الأربعة (الكاتورلكسانا) الذي تسلم به التيارات البوذية جميعها، وهذه الخواتم هي: جميع الظواهر المركبة زائلة؛ كل ما هو مركب ومكيف ألم ومعاناة؛ جميع الظواهر تُعَرى عن ذات؛ **النيرفانا** سلام يتعدى الألم والمعاناة. ولما اجتاز بوذا نفسه تجربة الطريق الذي يقود إلى إنهاء الألم والانعتاق من الشهوة والجشع فإنه يمكن لجميع الناس بدورهم أن يتخلصوا من جميع الروابط التي تشدهم إلى دورة البعث وتجديد الخلق (السمسارا) شريطة اتباع الناموس (الدارما) الذي هو عدل الطريق الوسط (مادياما براتيبياد، أو مايهيما باتيبيادا بلغة البالي). ومن ثم فقد أُقرّ تعليم بوذا باعتباره ناموسا. ولهذا كانت هذه الدارما ثابتة لا تتغير وتقع موقع الوسط من الملاذات الثلاثة (سارانا غامانا) التي تقوم عليها البوذية بأسرها وتؤلف بالتوازي الجواهر الثلاث (تريراتنا)، وهي: بوذا (اليقظان)، والدارما (الناموس) والسمغا (الجماعة) التي يلوذ بها كل بوذي.

الحقائق الأربع الشريفة

يذهب تقليد قديم إلى أن بوذا علّم جوهر الدارما أول مرة أثناء عظة بيناراس التي عدد فيها الحقائق الأربع الشريفة (كتفاري آريا ستفاني) التي تقول بها جميع التقاليد البوذية.

ويُعبرُ عن هذه الحقائق على هذا النحو:

- لا شيء يُرضي أو كل شيء ألم ومعاناة (دوكها) من قبيل أنه لا شيء يستقر على حال؛

- تفضي الشهوة (ترسنا) والجشع (لهوبا) - اللذان يسببان تجدد الوجود وتجدد الصيرورة في دورة البعث وتجدد الخلق - إلى عدم الرضا والألم والمعاناة.

- يسبب انقطاع (نيرودها) الشهوة والمعاناة انطفاء (نيرفانا) دورة البعث وتجدد الخلق.

- يؤدي طريق الوسط ذي الشواكل الثماني¹ إلى اليقظة (بوذي) وبه يحصل اليقين ببلوغ النيرفانا.

وما إن سمع أصحاب بوذا الخمسة هذا التعليم حتى حصلت لهم رؤية الأشياء رؤية واضحة وألّفوا الجماعة البوذية (سمغا) الأولى التي سرعان ما تركبت من الرهبان (بهيكسو) وغير المتدينين من الرجال (أوباساكا) والنساء (أوباسيكا) الذين يتمرنون متنافسين في العمل بما يقتضيه الطريق ذو الشواكل الثماني، وعلى السلوك القويم والفكر السديد حتى يصلوا إلى حال الأرهات، "أي حال من لا يعود البتة"، ومن يخرج من دورة البعث وتجدد الخلق خروجاً لا رجوع بعده.

ويُستهل مضمون الحقائق الأربعة الشريفة التي تتألف منها الدارما، حسب أعرّف الصيغ وأشهرها في النصوص والتقاليد المختلفة، بملاحظة أن "كل شيء معاناة" إذا اتبعنا ترجمة صارت شائعة للفظه "دوكا" رغم أن المصطلح يعني حرفياً "عدم الرضا" أو "الاختلال" وأيضاً "عدم الشبع". والحق أن مذهب بوذا يقوم على تجربة عدم الرضا وعدم دوام الحال الشامل الذي ينكره كل واحد ليزيد من تعلقه بوهم الذات (آتام) الواحدة والدائمة والمكتفية بنفسها، والحال أن الفرد مركب من اجتماع عناصر (سكاندا) متغيرة. وحتى يتوصل الإنسان إلى التسليم بما في العالم وجميع الكائنات من طابع العروض والزوال فإن عليه القضاء على ما في نفسه من الجهل الكامن وراء رغبته في الوجود (بهافا) أو في عدم الوجود (فبيهافا). وهو بفعله هذا يسلم من الأذى ويفلت من تأثير السموم الثلاثة (ترينياكوسالا مولاني) التي هو منغمس فيها، وهي: الجشع (لوبها)، والبغض (دفيسا) والضلال (موها). والحق أنه يُحمَلُ على الفعل (كارمان) بتأثير هذه السموم الثلاثة تأثيراً متضافراً. بيد أنه يوجد مبدأ لا جدال فيه: كل فعل ينتج ثمرة (بهاالا) تُقدر فترة نضجها على المدى القصير والمتوسط والطويل. وقد وضعت النصوص ناموس الإنتاج المشترك المكيف أو التابع (براتيتيا ساموتبادا) مبينة، انطلاقاً من تعليم بوذا الأصلي، الكيفية التي يصل بها الإنسان إلى الوجود ويُحمَلُ بها على الفعل. وهذا الناموس هو المسير للروابط (أو الارتباطات) الاثني عشر (نيدانا) التي تخلق كيان الإنسان الظاهر. وما إن يتصرف الإنسان بتأثير رغبته في الوجود أو عدم

¹ "وطريق ذو شواكل: إذا كان تشعب منه طرق كثيرة" (الهروي، كتاب الغريبيين في القرآن والحديث، 3/ 1026)

الوجود حتى يسري عليه هذا الناموس. ولما كان بهذه الصفة متعودا على البعث وتجدد الخلق فعليه أن يتحمل جزاء أفعاله. وهو يخضع لدورة البعث وتجدد الخلق طالما لم "يدخل التيار" أي الطريق المفضية إلى إزالة السموم الثلاثة.

أركان الطريق الروحية الثلاثة

تصف الحقيقة الشريفة الرابعة التي يُعلّمها بوذا الطريق التي ينبغي اتباعها (بوذي) لبلوغ اليقظة وإزالة طاقة الأهواء والجهل والوقوف على واقع الأشياء الحقيقي بعد الدخول في الصفاء الذهني. وهذه الطريق التي تشيع تسميتها بالسبيل ذي الشواكل الثماني تشتمل على ثمانية عناصر لا انفصام لها: ثلاثة منها تدخل في حقل الأخلاق (سيلة)، وثلاثة في مجال الرياضة الذهنية أو تثبيت الذهن (سمادي)، واثنان في ميدان الحكمة (براينا). وتحدد هذه العناصر، وقد وزعت على هذا النحو، ما تسميه البوذية القديمة الأركان الثلاثة لكل طريق روحية. فالأخلاق والرياضة الذهنية والحكمة تقدم دوما على هذا النحو من الترتيب رغم أن هذه الأركان الثلاثة متساوقة. والحق أن التقليد يذهب إلى أن الوصول إلى رؤية الأشياء رؤية واضحة يقتضي أن يكون محو الأخطاء المرتكبة بتأثير الجشع والبغض والتي يكون مصداقها المباشر في الحواس أيسر من محو الأخطاء المتعلقة بالجهل والضلال اللذين برسوخهما في الذهن يتطلبان سيرورة طويلة من التأمل لتسكينه وتهيبته للحكمة ورؤية الواقع الجوهرية.

فالأخلاق تقوم بادئ ذي بدء على الامتناع الواعي عن كل فعل سواء عبر عنه الجسد أو القول أو كان نية كامنة في الذهن. وأدوات الفعل الثلاث هذه تشتمل عليها العناصر الثلاثة من السبيل ذي الشواكل الثماني، وهي العمل والقول والمال الحلال. وبالجسد يقترن القتل والسرقة والخلاعة؛ وبالقول يقترن الكذب والغيبة والشتم والكلام السخيف؛ وفي الذهن ينغرس الجشع والبغض والضلال وهو سوء النظر. فالخطايا الأربع التي ينبغي اجتنابها والتي عدّناها على هذا النحو تُعبر تعبيراً صريحا عن ضرورة عدم إيذاء الغير. ومن المهم حينئذ تيسير حياة السعادة والوفاق لجميع الأفراد وللمجتمع

بإتيان الأفعال الفاضلة الستة (وهي التبرع وحسن الخلق والصبر والاجتهاد والتركيز والحكمة) والمشاعر الأربعة التي ليس لها حد وهي (الإحسان والشفقة والفرح واعتدال المزاج).

وإذا كان من شأن الأخلاق أن تزيل ما يلم بنا من الحمى، فهي ليست سوى الخطوة الأولى نحو **النيرفانا** واليقظة، إذ يتعين تصفية القلب والذهن مصدري الجهل والوهم والرغبة في الوجود أو عدم الوجود بالممارسة والرياضة الذهنية (**سمادي**). ويفضي هذا التركيز إلى حال يتحقق فيه الاجتهاد أو الجهد الصحيح والانتباه الصحيح والتركيز الصحيح، وهي ثلاثة من العناصر الثمانية من السبيل ذي الشواكل الثماني. وتقوم هذه العناصر على تثبيت الذهن على نحو يبتعد معه عن حركات الفكر المضطربة التي تشتتته في جميع الاتجاهات وتشغله عن واقع الأشياء الجوهرية. ويكتسب الفرد بالتمرين شيئاً فشيئاً الصفاء الذهني (**سماتا**)، ويتوصل إلى تحرير ذهنه من كل وهم ذي طابع مادي أو غير مادي، ويلتزم بالحيولة دون الحالات الذهنية الرديئة التي تسكنه أو تهدده، وبتنمية ما هو جيد منها، وبمراقبة نشاطات جسمه وذهنه وجميع أحاسيسه مراقبة واعية. وليس له بعد ذلك إلا التركيز وتجنب الطرق الآلية في عمل الوعي والأحاسيس. وعندئذ فحسب نُستأصل الأهواء. فهذا الانسلاخ عن النفس أو الخروج من حدود الذات يهيئ المرء للاستنارة أو اليقظة. وينبغي لمن دخل حال التأمل ألا ينسى البتة أن الرؤية (**فيباسيانا**) تظل في الأصل المنفذ المباشر الوحيد إلى مثل هذه التجربة.

وأخيراً تقوم الحكمة (**برائنا**) على فكر وفهم صحيحين للأشياء يتلخصان، في نهاية المطاف، في رؤية واضحة للحقائق الأربع الشريفة. وهي تكتسب بطرق مختلفة: بالتعليم والتفكير والتأمل. وعلى هذا تلتبس المعرفة الرفيعة أو الحكمة باليقظة. ولا يعود من بلغ حال اليقظة مرشحاً لأن يُبعث ويتجدد خلقه من قبل أنه يكون قد استنفد في نفسه جميع بذور الحياة. فهو مُخلصٌ ويقظٌ، وهو موقنٌ بأنه استنفد وأطفاً (**نيرفانا**) إلى الأبد جميع الطاقات التي كانت تحمله على الفعل وعلى ما يترتب عليه من نتائج.

بول مانيان

النص الفرنسي:

- على شبكة الأنترنت باستعمال كلمات البحث التالية:

Dictionnaire des Notions: Les Dictionnaires
+Paul Magnin +d'Universalis Dharma

أو بنسخ العنوان التالي وإلصاقه:

<https://books.google.tn/books?id=ot6KBAAAQBAJ&pg=PT242&lpg=PT242&dq=en+sanskrit,+le+mot+dharma,+qui+a+pour+racine+dhr+signifiant+porter&source=bl&ots=KCSZLbikxM&sig=ACfU3U39FgL1tBr4u7Jyj910cCWT-69Wdg&hl=fr&sa=X&ved=2ahUKEwjzqaOdgpXzAhUKmRQKHUU3B5IQ6AF6BAgNEAM#v=onepage&q=en%20sanskrit%20C%20le%20mot%20dharma%20C%20qui%20a%20pour%20racine%20dhr%20signifiant%20porter&f=false>